درجات الكمال الروحي

الميتروبوليت بيروثيوس فلاخوس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أهم عمل للكنيسة هو علاج الإنسان. لذلك الكنيسة الأرثوذكسية هي مستشفى، مستوصف للروح. هذا لا يعني أن الكنيسة تتجاهل مجالات النشاط الرعائي الأخرى، لأنها تهدف إلى الإنسان كله، وهو يتكوّن من الجسد والروح. إنها تهتم بالفعل بالمشاكل الجسدية والاقتصادية والاجتماعية أيضًا؛ ومع ذلك، فإن ثقل خدمتها الرعائية الرئيسي موضوع على علاج الروح، إذ عندما تُشفى روح الإنسان، تنحلّ العديد من المشاكل المستعصية الأخرى.

يتّهم البعض الكنيسةَ الأرثوذكسية بأنها لا تنخرط كثيرًا في المشاكل الاجتماعية. ومع ذلك، فإن الكنيسة تهتمّ بكل الأمور التي تهمّ الإنسان. يظهر هذا الاهتمام واضحاً من محتوى صلواتها في خِدَم العبادة كما في عمل الآباء القديسين وتعليمهم. ولكن كما يهتمّ المستشفى الطبي بشكل أساسي بعلاج الجسد - ومن خلال هذا العلاج يتعامل مع بقية مشاكل الشخص - كذلك هو الحال في الكنيسة الأرثوذكسية. إنها تشفي جوهر شخصية الإنسان ومن خلاله تشفي الشخص كله. لهذا السبب، حتى في أوقات الاضطرابات الاجتماعية، عندما تكون جميع الآليات الحكومية متوقفة فعليًا - حتى الحريات الخارجية للشعوب - تحافظ الكنيسة على عملها: علاج الشخص وشفائه.

إن شفاء شخصية الإنسان هو في الحقيقة تقدّمه نحو الكمال الذي يُعرَّف في الواقع على أنه "التألّه"، إذ في لاهوت آباء الكنيسة، التألّه والكمال هما مصطلحان مترادفان. وهذا العلاج ضروري للغاية، لأن سقوط الإنسان، الذي تمّ في شخص آدم، يشكّل مرضَ طبيعة الإنسان.

في الفردوس، قبل السقوط، كان آدم في حالة "ثاوريا" أي معاينة الله. تكشف دراسة سفر التكوين أنّ آدم كان في شركةٍ مع الله. ولكن كان من الضروري له أن يبقى على هذه الحالة، بحكم جهاده الطوعي، حتى يستقرّ أكثر ويصل إلى شركة واتحاد كامل معه. يصف القديس يوحنا الدمشقي حالة "العدالة" البدائية هذه بشكل مميز. تطهّر آدم وتغذّى في نفس الوقت برؤية الله. كان عقله مستنيرًا، وهذا يدل قبل كل شيء على أنه كان هيكلًا للروح القدس، وأنه كان يختبر ذكرَ الله بلا انقطاع.

تتكون الخطيئة "الجديّة" من ظلام النوس[١] وفقدان الشركة مع الله. كان لهذه الخطيئة بالطبع تداعيات أخرى أيضًا: ارتدى الإنسان ثيابًا جسدية من الانحلال والفناء. عانى النوس من ظلمة عميقة. بعبارة أخرى، فقد الإنسان نور نوسه. أصبح نجسًا وأهوائياً وحمل جسده الفسادَ والفناء. وهكذا، من يوم ولادتنا، نحمل في داخلنا الفساد والموت: حياة بشرية تأتي إلى العالم محكوم عليها بالموت. ومن ثم، بسبب السقوط، نعاني من مرض عالمي. كل من النفس والجسد مريضان وبطبيعة الحال، بما أن الإنسان هو خلاصة كل الخليقة - العالم الصغير داخل الكون الكبير - حلّ الفساد أيضًا على كل الخليقة.

"إنّ العقلَ قد تجرَّح، والجسمَ قد ضني، والرّوحَ قد اعتلّ، والنّطقَ قد ضَعُف، والعمرَ قد أُميت، والنجازَ على الأبواب. فماذا تصنعينَ أيّتُها النفسُ الشّقيّةُ إذا ما جاءَ القاضي ليستفحصَ أمورك؟" (القانون الكبير)

في الواقع، عندما نتحدث عن الخطيئة الجديّة وعواقبها، فإننا نعني ثلاثة أشياء: أولاً، خلل النوس حيث توقّف

عن العمل بشكل صحيح؛ ثانيًا، تحديد النوس بالعقل (وإلى حدٍ ما ، تأليه العقل) وثالثًا استعباد النوس للعواطف والقلق وظروف البيئة. وهذا يشكّل الموت الحقيقي للإنسان.

لقد اختبر الانسان الارتباك؛ نفسه الداخلية كانت تموت ونوسه يسيطر عليه الظلام. وتماماً كما أنه عندما تفسد عين الجسد فالجسد يظلِم بالكامل، كذلك عندما يعتلّ النوس، عين النفس، من العمى، فإن النفس الروحية بكاملها تصير مريضة. إنها تقع في الظلام الأعمق. هذا ما يشير إليه الرب بقوله: فَإِنْ كَانَ النُّورُ الَّذِي فِيكَ ظَلاَمًا فَالظَّلاَمُ كَمْ يَكُونُ!" (متى ٦:٢٣).

بالإضافة إلى الانقطاع بكامِلِ وظائف النفس الداخلية، نتج عن الخطيئة الجديّة اختلال الإنسان الخارجي. فإذ به يواجه البشر الآخرين والعالم وكل الخليقة بطريقة مختلفة. لم يعد النوس قادراً على لقاء الله، فكانت النتيجة خلق أصنام لله ما نتج عنه الديانات الوثنية وحتى الانحرافات الهرطوقية.

في عجزه عن أن يرى الإنسان كصورة لله، صار النوس يلاقي الإنسان متأثّراً بالأهواء. إنه يستغلّ أخاه الإنسان بشكل طموح من خلال محبة اللذة والكسب المادي. إنه ينظر إليه كإناء أو أداة للذة؛ وفي الوقت نفسه يصنّم الخليقة كما يصف الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية: "وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ، وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ." (رومية ١:٢٢-٢٣).

لهذا يحتاج الإنسان لأن يُشفى، أي أن يتطهّر وأن يقتني استنارة النوس، أي حالة آدم قبل السقوط، ومن ثم يبلغ التألّه. هذا يتحقق تحديداً بتجسّد المسيح ومجمل عمل التدبير الإلهي والكنيسة. ينبغي النظر إلى الكثير من النصوص الليتورجية حيث يُوصَف المسيح بالطبيب وشافي النفوس والأجساد، من ضمن هذا الإطار المرجعي. إلى هذا، في نفس الإطار ينبغي درس مختلف النصوص الآبائية حيث يظهر عمل المسيح الرئيسي والأول عملاً علاجياً.

بعد سقوط الإنسان نشأت الحاجة للعلاج. هذا تأثّر بتجسّد المسيح ومذذاك صار هذا عمل الكنيسة. إنها تشفي الإنسان عامة وخاصة، وبشكل رئيسي تشفي شخصيته الجريحة: نوسه وقلبه. كل آباء الكنيسة يدعون الإنسان لأن يسعى إلى الشفاء. وهو يشفى بقوة الله التي مصدرها غير مخلوق وهي تتكشّف في "شخص يسوع المسيح". قوة المسيح التي منها يأتي شفاء الإنسان تُمنَح مجاناً ولهذا تُدعى النعمة الإلهية. لهذا، سواء قلنا قوة غير مخلوقة أو نعمة إلهية لا فرق إذ نعني الأمر نفسه. يكتب الرسول بولس: "لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ." (أفسس ٢:٨).

إذ يحيا الإنسان ضمن الكنيسة بالنعمة، يطهّر أولاً قلبه من الأهواء، فيَصِل إلى استنارة النوس كما كان آدم قبل السقوط، ومن بعدها يصعد إلى التألّه الذي هو شركة الإنسان مع الله واتحاده به وهو ما نصفه بأنه الخلاص. هذه هي درجات الكمال الروحي وقاعدة الروحانية الأرثوذكسية.

مع هذا، ينبغي قول بعض الأمور عن النعمة الإلهية قبل أن نتطلع إلى مراحل الكمال الروحي، التي هي طريقة ومنهج علاج الإنسان، إذ هي متّصلة بشدة بالتطهّر والاستنارة والتمجيد.

في الروحانية الأرثوذكسية، التطهّر والاستنارة والتألّه ليست مراحل نشاط بشري، بل هي نتائج قوة الله غير المخلوقة. عندما النعمة الإلهية (قوّة الله) تطهّر الإنسانَ من الأهواء، فإنها تسمّى مطهّرة؛ عندما تنير نوسه تسمى منيرة. وعندما تؤلّه الإنسان تسمّى مؤلّهَة. نعمة الله وقوته نفسها تُعطى أسماء مختلفة وفقًا لتأثيراتها.

عبر كل التقليد الآبائي، يلمّح الآباء إلى المراحل الثلاث للكمال الروحي باعتبارها الدرجات الثلاث لشفاء الفرد. يذكر القديس ديونيسيوس الأريوباغيتي التطهّر والاستنارة والكمال. كما يستخدم القديس غريغوريوس النيصي التمييز

نفسه. يشير القديس مكسيموس المعترف أيضًا إلى الفلسفة العملية (التطهّر) والثايوريا الطبيعية (التنوّر) واللاهوت الصوفي (التألّه). يقسّم القديس سمعان اللاهوتي الجديد في كتاباته بعض الفصول إلى إصحاحات عملية ومعرفية ولاهوتية. في كل التقليد الأرثوذكسي، تُذكَر مراحل الكمال الثلاث هذه بشكل متكرر. بهذه الطريقة يُشفى الإنسان ويختبر التقليد المقدس؛ يصبح "تقليدًا" ويخلق "تقليدًا". إنه حامل التقليد. مميّز هو العنوان الفرعي للفيلوكاليا الذي هو عمل القديس نيقوديموس الأثوسي والقديس مكاريوس أسقف كورنثوس. في هذا العمل الذي هو عبارة عن تجميع لكتابات الآباء القديسين [من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر] ، تتمّ مناقشة كيفية علاج الإنسان لنوسه من خلال المرور بالمراحل الثلاثة للحياة الروحية. ومن المعروف أن الفيلوكاليا، التي تحتوي على الطريقة الكاملة لشفاء البشر، هي دليل أساسي للحياة الروحية".

[١] النوس: للكلمة استخدامات مختلفة في تعاليم آباء الكنيسة، فهي تشير إما إلى الروح أو القلب أو حتى إلى طاقة الروح. ومع ذلك، فإن النوس هو في الأساس عين الروح؛ أنقى جزء منها؛ ذروة الانتباه؛ ويُسمّى أيضًا القوة النوسيّة ولا يتم تحديده بالعقل.

*An excerpt from Chapter 4 of “Orthodox Spirituality, a brief introduction”, pp. 40-49.